

## مستقبل الاتحاد الأوروبي في ظل صعود الأحزاب اليمينية الشعبوية

أصبح في السنوات الأخيرة في المجتمعات والسياسة الأوروبية حضور قوي للأحزاب اليمينية الشعبوية. مما شكل تحدي للاتحاد الأوروبي ومستقبله في ظل تنامي هذه الأحزاب، علماً أن هذه الأحزاب ليست بجديدة، إنما ما جد على الساحة الأوروبية هو الانتصارات الانتخابية التي حققتها، وانتقالها من موقع المشاهدة والمراقب الناقد للسياسات الأوروبية إلى موقع المشاركة ودخولها للأنتلافات الحاكمة.

يهدف هذا البحث إلى دراسة مستقبل الاتحاد الأوروبي في ظل صعود هذه الأحزاب الشعبوية. وتقوم الدراسة باستعراض مفهوم الشعبوية ومتى تظهر، وتوجهاتها وبرامجها، والعوامل التي أدت إلى صعودها. وأخيراً مستقبل الاتحاد الأوروبي في ظل صعود هذه الأحزاب.

الشعبوية، كما عرفها العالم السياسي الهولندي كاس مودي، ترى أن المجتمع ينقسم إلى مجموعتين متجانستين ومعارضتين "الشعب النقي" مقابل "النخبة الفاسدة"، والتي تجادل بأن السياسة يجب أن تكون تعبيراً عن الإرادة العامة للشعب ويعني ذلك، المطالبة برد السلطة إلى الشعب، واستعادتها من نخب حاكمة فاسدة وغير كفوءة ومختلفة حول المصالح الحقيقية للشعب والأمة.

وحسب الباحثة كريستا ديويكس، في دراستها "الشعبوية"، الصفة الأساسية للحركات الشعبوية، هي إيمانها بمحورية دور الشعب في العملية السياسية، التي يجب أن تعكس بشكل مباشر الإرادة الشعبية. ولذلك، فإن لدى هذه الحركات معارضة ونفور من النخب والمؤسسات السياسية المختلفة، التي تقف حائلاً بين هذه الإرادة الشعبية، وتحقيق أهدافها.

تظهر الأحزاب الشعبوية، غالباً، أثناء فترات الاضطراب والتغيير، سواء كانت أزمة اقتصادية لها آثار اجتماعية، أو بسبب سيطرة نخبة فاسدة، تعلق مصالحها الخاصة على المصلحة العامة، وكثيراً ما يقود هذه الأحزاب قيادات سياسية جديدة تتميز بالكاريزمة والجاذبية، وتتجح في إقناع أنصارها بأن وصولها إلى الحكم سيؤدي إلى تحقيق الإرادة الشعبية الحقيقية.

يتميز الخطاب الشعبوي، بالتبسيط الشديد لقضايا معقدة، حيث إنه يتوجه إلى المواطن العادي، كما يتميز بطغيان الجانب العاطفي، إذ إن هذه الحركات، تتغذى على مشاعر الغضب، والخوف عند عامة الناس.

وتتسم برامج اليمين الشعبوي، بأنها مزيج من أفكار أيديولوجية متنوعة، صيغت بشكل معين، لضمان التأييد الشعبي من قبل الشرائح المهمشة في المجتمع، الذين يشعرون بالخوف على مستقبل أبنائهم من قبل المهاجرين، ويتمثل فكر اليمين الشعبوي في رفض التعددية الثقافية ورفض الأقليات، ورفض المشاركة السياسية والاندماج الاجتماعي للمهاجرين، والترويج لإرهاب الأجانب والعنصرية والاسلاموفوبيا، والدفاع عن حقوق المستأجرين من أداء الأحزاب التقليدية في معالجة البطالة والهجرة. وأجمعت أحزاب اليمين الشعبوي على عداؤها للهجرة والمهاجرين في برامجها السياسية، بحيث أطلق عليها أحزاب "ضد الهجرة".

كان صعود وتنامي الأحزاب الشعبوية في أوروبا نتيجة عدة عوامل وتحولات في القارة الأوروبية، والعالم، أهمها الأزمة المالية العالمية، والأوضاع الاقتصادية في الدول الأوروبية، ومع قدوم أعداد هائلة من المهاجرين، ربطت تلك الأحزاب الأوضاع الاقتصادية السيئة بالمهاجرين، وربطتهم بالأوضاع الأمنية، وبالخوف من ضياع الهوية الوطنية، لتشكل مناخ جيد لصعودها.

وصعود اليمين الشعبوي ليس فقط نتاج أزمة مالية، فهناك أزمات الهوية القومية التي ظهرت مع تزايد المهاجرين واللاجئين. ، فقد أصبح المواطن الأوروبي أقل أمناً ، وأكثر قناعة بأن المنظومة السياسية قد خذلتها. فالمسألة لا تتعلق بالمخاوف الاقتصادية بقدر ما هي مخاوف تتعلق بالثقافة والهوية الوطنية بقناع اقتصادي، فقد استطاع اليمين الشعبوي أن يعزز الشعور بعدم الأمان وعدم الثقة لدى المواطن في عالم متغير بسرعة.

وهذه القضايا ليست جديدة، وإنما زادت بسبب قدوم اللاجئين والهجمات، وهما أمران منفصلان، لكن تربط غالبية الأحزاب اليمينية الشعبوية، هذين الأمرين ببعضهما البعض. فقد كان لتوظيف قضية الهجرة، دور كبير في صعود أحزاب اليمين الشعبوي، بحيث أصبح المهاجر هو السبب الرئيسي لكل ما هو سيء مثل البطالة والجريمة. وهذه القضايا تمس الأمة الأوروبية والتي تستغلها الأحزاب اليمينية للصعود.

يعارض اليمين الشعبوي، أهداف الاتحاد الأوروبي، وأساليب عمله. إذ يدعي أن "الترباط" خطير، ويجب للسيادة الوطنية أن تكون مطلقة. وتتعارض هذه النظرة مع هدف الاتحاد الأوروبي، المتمثل في بناء مشاريع مشتركة التي تزيد من ترباط الدول.

شكل صعود الأحزاب اليمينية الشعبوية تحدياً للاتحاد الأوروبي بين ما يمثل من مبادئ وما بين ما تدعو له الأحزاب الشعبوية، إذ يركز الاتحاد الأوروبي على الديمقراطية والتكامل والتشارك، وبناء الهوية الأوروبية الموحدة، وحقوق الإنسان، والتي من خلالها يستقبل المهاجرين، بينما تنظر هذه الأحزاب إلى الاتحاد على أنه تهديد للهوية الوطنية التي تسعى إلى إقامتها، وتدعو إلى عدم استقبال المهاجرين الذين يهددون الهوية والثقافة الأوروبية.

تعددت الآراء حول مستقبل الاتحاد الأوروبي في ظل وجود وتصاعد الأحزاب اليمينية الشعبوية، فبعد مرور 60 عاماً على مشروع التكامل الأوروبي، يواجه الاتحاد الأوروبي شبح الشعبوية التي احتلت موقعاً في السياسة الأوروبية في السنوات الأخيرة، الداعية إلى تفكيك الاتحاد والرجوع إلى الوطنية.

فالشعبوية واحدة من التحديات التي تواجه مستقبل الاتحاد الأوروبي في استكمال الاندماج والتكامل، فالأسس التي قام عليها الاتحاد من التكامل والسيادة المشتركة هي المستهدفة من الأحزاب اليمينية الشعبوية التي تعارض قيمه ومبادئه التي بني عليه، والتي ترفض مؤسساته.

لكن، يؤكد عدد كبير من المحللين أن الشعبوية ظاهرة عرضية. فالأحزاب الشعبوية، تخضع لنفس القوانين السياسية الأساسية، التي تعيق منافسيها، فبمجرد وصولهم إلى السلطة عليهم أن يختاروا بين الاستجابة والمسؤولية، بين فعل ما يريدونه نخبوهم، وما يفرضه الواقع الاقتصادي، وما تحدده مؤسسات الاتحاد الأوروبي.

ويمكن هزيمة اليمينيين الشعبويين أو على الأقل احتوائهم عبر ثلاث استراتيجيات: الانخراط أو التفاعل مع المخاوف التي يستغلها الشعبويين؛ بناء الكفاءة السياسية التي تعمل على تقليل من التجمع المحتمل للشعبويين؛ وعبر الديمقراطية التشاركية (إشراك المواطنين مباشرة، وإعادة التركيز على شكاوهم المشروعة)، إذ يجب أن تؤخذ الأحزاب الشعبوية ومواقفها على محمل الجد.

مستقبل الاتحاد الأوروبي، مع صعود الأحزاب اليمينية الشعبوية، في الشارع الأوروبي وفي السياسة الأوروبية، يقف في مفترق طرق، إذ يمكن أن تلعب هذه الأحزاب دوراً كبيراً في إنهائه إن لم يقوم الاتحاد بعدة خطوات ترجع الثقة إليه من المواطنين من خلال إيجاد الحلول للأزمات الاقتصادية وتزايد المهاجرين والمحافظة على الهوية الوطنية الأوروبية، والتغلب على خروج بريطانيا منه.

وإن استطاع الاتحاد التغلب على تلك التحديات، فإنه سيستمر، وإن أخفق في مواجهة تلك التحديات ستكون خروج بريطانيا أول القطرة في الغيث، الذي سيحصل مستقبلاً. وأعتقد أن الاتحاد الأوروبي سيتغلب على تلك التحديات، وسيستمر في تكامله وتحقيق مبادئه.